# ثقافتنا فى الصين

بعد عودتى من الصين تلقيت فى البريد ترجمة لكتاب الدكتور حسين كامل بهاء الدين «الوطنية فى عالم بلا هوية» إلى اللغة الصينية، وأثارت هذه الترجمة شجونى، واعادت ذكريات حوارات أجريتها فى بكين وشنغهاى حول القصور فى التبادل الثقافى من الجانبين.

وخلال زيارتى ، لاحظت اهتماما من جانب من قابلتهم بالثقافة العربية والإسلامية عموما، وبالثقافة المصرية على وجه الخصوص، يستوى فى ذلك المسئولون فى الحزب والحكومة و أساتذة الجامعات والمسئولين فى مراكز البحث السياسى والاستراتيجى والمؤسسات الإسلامية.

ففى لقائى مع مدير عام العلاقات الخارجية للجنة المركزية للحزب الحاكم دار الحوار حول وجود علاقات سياسية قوية بين مصر والصين.. لكن العلاقات الثقافية لا تزال اقل بكثير مما يجب أن تكون عليه. هذا المستوى من العلاقات السياسية بين الدولتين والشعبين وحركة التبادل الثقافى محدود جدا ولا يتفق مع الرغبة فى البلدين فى الاقتراب أكثر، وفهم كل شعب لطبيعة الشعب الآخر، وتاريخه، وأحواله، وتقاليده، وعاداته.. إلخ.

ومعظم من قابلتهم قالوا لى: إننا نعرف الكثير عن مصر وعن العالم العربى، ولكن هذه المعرفة محصورة فى مستوى القيادات والمتخصصين، وليست موجودة على المستوى الشعبى أو حتى بين قطاع عريض من المثقفين، وهذا هو الحال عندكم فى مصر والعالم العربى.. حركة الترجمة من اللغة الصينية إلى اللغة العربية قليلة جدا، ونتيجة لذلك فإن

الصورة الذهنية لدى العرب والمصريين عن الشخصية الصينية والمجتمع الصينى مصدرها الكتابات الغربية التى تترجم إلى العربية، فالمصريون لايعرفون الكثير عن الصين.. حتى الجغرافيا.. أو التاريخ.. أو الحياة الاجتماعية.. أو النظام السياسى.. أو عن أحوال وكيفية التعامل مع الاقليات فى الصين عموما والمسلمين منهم على وجه الخصوص.. بل ربما يكون فى العالم الإسلامى من لا يعرف أن الصين فيها ٢٠ مليون مسلم على الأقل.

والحكومة الصينية تحمل لمصر تقديرا خاصا، ولا تنسى أن مصر كانت أول دولة عربية وأفريقية تعترف بالصين، وأول دولة تقيم علاقات دبلوماسية معها، ومصر والصين تتفقان دائما فى كثير من القضايا الدولية والإقليمية، ويظهر هذا الاتفاق فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وفى مجلس الأمن، وفى المنظمات والمؤتمرات الدولية، وهناك وفود من البلدين تتبادل الزيارات، سواء على مستوى مجلس الشعب فى مصر والجمعية الوطنية فى الصين، أو على مستوى الوزراء وبخاصة وزير التربية والتعليم، وهو معروف جيدا فى الصين، لأنه زارها اكثر من مرة، وله كتابان مهمان ترجما إلى اللغة الصينية، الأول عن التعليم والمستقبل.. وقد قررت الحكومة الصينية توزيعه على المعلمين ضمن برامج التدريب ورفع كفاءتهم، والكتاب الثانى عن العولمة وتأثيراتها وصورة القرن الحادى والعشرين، ووضع الكيانات القومية فى ظل النظام العالمى الجديد، وهو بعنوان «الوطنية فى عالم بلا هوية».

ومن بين الأفكار والمقترحات التى تولدت فى هذه الحوارات أهمية إنشاء مركز ثقافى للصين فى القاهرة، ومركز ثقافى لمصر فى بكين، لتشجيع ودعم دراسة اللغة العربية فى الصين، ودراسة اللغة الصينية فى مصر، والتعريف بالثقافة والمثقفين فى كلا البلدين.. وكذلك أهمية التوسع فى

عـرض أفـلام كـل بلـد فـى البلـد الآخـر.. صحيـح أن هنــاك بعــض الأفــلام المصرية عرضت فى دور السينما وفى التليفزيـون فـى الصـين ناطقـة باللغـة الصينيـة أو مع ترجمة صينية، ولقيت إقبالا من المشاهدين، إلا أن عـدد هـذه الأفـلام قليـل ولا يكفـى للقـول بـأن هنــاك جســرا دائمــا للتواصــل الثقــافى والحضارى بيننا، وكذلك فإن الأفلام الصينيـة التـى عرضت وتعـرض فـى مصر نادرة .

ليس ذلك فقط، بـل إن التعـاون فـى مجـال الصحافـة أقـل بكثيـر جـدا ممـا يجب ، فالصحافة فى الصين تنشـر الكثـير مـن المقـالات والأخبـار والتحليـلات عن مصر، ولكن الصحافة المصرية لا تنشر إلا القليـل عـن الصـين، والصحافـة المصريـة صحافـة قويـة، ولها تأثيرهـا فـى الـرأى العـام فـى مصـر وفـى العــالم العربى، ويهمنا أن نجـد فيـها مسـاحة عـن الصـين فـى الأخبـار والتحقيقـات.. كمـا يـهمنا أن ترسـل الصحـف المصريـة مندوبـين للإقامـة فـى الصـين فـترة كافيـة للتعـرف علـى طبيعـة المجتمـع الصينـى والكتابــة عنــه مــن موقــع المعرفة، وليس نقلا عن المصادر الغربية، ويشمل العتاب أن عدد العــاملين فـى مكتب وكالة أنباء الصين والمراسلين لصحـف الصـين فـى القـاهرة هـو أكـبر عدد فى أفريقيا والعالم.. بينما لا يوجـد فـى الصـين غـير صحفـى واحـد فـى مكتـب وكالـة أنبـاء الشـرق الأوسـط، ويتطلـع الصينيــون إلى زيــادة حجــم التبـادل والمنـح الدراسـية فـى جامعـات البلديـن للأساتذة والمعيديـن والطلبـة لإيجاد صلات دائمة بين المؤسسات الأكاديمية ومراكز البحث العلمـى فـى البلديـن وتبـادل الخـبرات بينـهما، وإن كـان ذلـك لا يعنـى عـدم وجـود هــذا التبادل، ولكنه بحالته الراهنــة قليـل جـدا، فـلا يكفـى القـول مثـلا بـأن قسـم اللغة الصينية فى كلية الألسن بجامعة عين شمس فيــه أستاذ أو اثنــان مـن أسـاتذة الجامعـات الصينيــة، ولا يكفـى أن يقـال إن بعـض المسئولين مـن هنــا وهناك قاموا بزيـارة أو اثنتـين، فمثـل هـذه الاتصـالات المحـدودة لا تعـبر عـن الطمـوح، ونحـن نقـول إن مصــر والصــين، كليــهما ضمــن الــدول الناميــة،

ويواجهان نفس التحديات والمشاكل تقريبا، وبالتعاون بينهما يمكن الاستفادة بالخبرة على الجانبين، وإضافة نتائج التجربة فى البلدين معا، مما يحقق ثراء فى المعرفة يفيد البلدين.

هناك اختلاف بين مستوى العلاقات السياسية، ومستوى العلاقات الثقافية والعلمية والاجتماعية..

يذكرون فى شنغهاى بالتقدير جهود السيدة سوزان مبارك فى إنشاء مكتبة زودتها بكمية كبيرة من الكتب والمراجع العربية، تمثل إضافة مهمة تساعد الباحثين فى الجامعات على التعرف على الفكر والثقافة فى مصر.. كما يتحدثون بإعجاب شديد عن الأفكار التى ترعاها السيدة سوزان مبارك للارتقاء بالمستوى الثقافى للأسرة المصرية لكل الأعمار، مثل مشروع القراءة للجميع، ومشروع مكتبة الأسرة ومشروع اقرأ لطفلك، ويقولون إنهم يتابعون هذه المشروعات ويرون أنها من أعظم المشروعات الحضارية التى تنفذ فى العالم، وأن منظمة اليونسكو كانت محقة حين قررت منح السيدة سوزان مبارك جائزة تقديرا عن هذا الجهد، كما قررت تعميم هذه المشروعات فى دول أخرى فى العالم، ويفكرون فى تنفيذ هذه المشروعات فى الصين أيضا.

وفى شنغهاى التقيت مع أستاذ ومفكر كبير هو البروفيسور «تشو وى ليه» ويعرف باسم «البروفيسور عبد الجبار» وهو مستعرب يجيد اللغة العربية، وعلى اطلاع واسع بالثقافة والأدب فى العالم العربى.. وزار مصر عدة مرات وترجم عدة كتب ومقالات مصرية فى الأدب والسياسة إلى اللغة الصينية..

والبروفيسور عبد الجبار رئيس أكاديمية العلوم الاجتماعية بجامعة شنغهاى للدراسات الدولية، ورئيس تحرير مجلة العالم العربى التى تصدر منذ عام ١٩٨٠ باللغة الصينية وتنشر ترجمة لمقالات وأبحاث عربية، وهو من

مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٤١، تلقى تعليمه فى قسم اللغة العربية بكلية اللغات الشرقية بجامعة بكين، واستكمل الدراسة فى جامعة القاهرة لمدة سنتين من عام ١٩٧٨ إلى عام ١٩٨٠، وعمل مدرسا للغة العربية وآدابها فى جامعة شنغهاى للدراسات الدولية من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٠، ثم رئيس مركز بحوث اللغة العربية والحضارة الإسلامية من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ ثم أستاذا ووكيل كلية الدراسات العربية من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٧، ثم رئيس أكاديمية العلوم الاجتماعية منذ عام ١٩٩٦ إلى اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يشغل عدة مناصب مهمة: عضوا مشاركا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونائب رئيس جمعية الدراسات الشرق أوسطية الوطنية فى الصين، ونائب رئيس لجنة الإرشاد لتدريس اللغات الأجنبية، ورئيس فرع الإرشاد لتدريس اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم بالصين، ونائب رئيس جمعية الدراسات الدولية فى شنغهاى، وعضوا مراسلا للمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) فى الأردن.

وقد بهرنى البروفيسور عبد الجبار بشخصيته وأفكاره وتعمقه فى دراسة اللغة والثقافة العربية، وهو يتحدث بلغة عربية سليمة، بل وباللهجة المصرية حتى نسيت فى حوارى معه أنه صينى.. وحسبت أنى أتحدث مع مفكر ومثقف مصرى يعرف كل شىء عن مصر وأدبائها ومؤلفاتهم القديمة والحديثة.. وترجم عشرات الكتب من اللغة العربية منها «رحلات ابن بطوطة»، و«ثلاثية نجيب محفوظ»، ورواية «الكرنك» لنجيب محفوظ، و«رد قلبى» ليوسف السباعى، و«سنة أولى حب» لمصطفى أمين، و«الأجنحة المتكسرة» لجبران خليل جبران، و«الأفيون» ليوسف الشارونى و«فنون الشرق الأوسط والعالم القديم»، و«فنون الشرق الأوسط من الغزو الإغريقى إلى الفتح الإسلامى» للدكتورة نعمت إسماعيل علام، و«تاريخ المغرب العربى»

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، و«السودان» للدكتور محمد محمود الصياد، و«ختم القرآن» و«عالمية الإسلام» للدكتور شوقى ضيف..

وله أيضا مؤلفات باللغة الصينية تدرس فى الجامعات الصينية منها: «خصائص الدول الأفرو آسيوية فى سياساتها للانفتاح على الخارج»، و«البحث عن حقيقة علم المصريات»، و«معجم الأدب العربى المعاصر»، و«دراسة الترجمة بين العربية والصينية نظريا وعمليا»، و«المراجع» و«واضع اللمسة الأخيرة» و«المصادر التاريخية لأفريقيا العربية من نهاية القرن الـ ١٨ حتى أواسط القرن الـ ٢٠»، و«تاريخ تطور اللغة العربية»، و«حضارة باهرة فى العصر العباسى»، و«المعجم الميسر صينى-عربى» و«الشرق الأوسط من منظور أستاذ صينى» وصدر منذ شهور.

ومع هذا الأستاذ الكبير قضيت وقتا ممتعا على الغداء بصحبة مساعد قنصل مصر فى شنغهاى الأستاذ ياسر هاشم، وهو نموذج مشرف للدبلوماسية المصرية بعلاقاته الواسعة ونشاطه المتميز وحبه وإخلاصه لبلده ولعمله، ومعرفته الواسعة بالصين وحضارتها أيضا.. وكان الغداء بدعوة من مدير مكتب الاستعلامات فى شنغهاى «شين جينج زى» وفى هذا اللقاء قيل إن شنغهاى تعتبر من أهم المراكز الثقافية والعلمية فى الصين المنفتحة على العالم، ومفكروها وأدباؤها أكثر تحررا، وهم يرصدون التغيرات التى طرأت على الصين وعلى شنغهاى.. وهى تغيرات واسعة فى الفكر والسلوك الفردى والجماعى، ويدرسون آثار سياسة الانفتاح الإيجابية والسلبية وكيفية معالجة مشكلة البطالة التى بدأت تظهر فى الصين مع أخذ الدولة بسياسة اقتصاد السوق، وتخفيف الأعباء عن المصانع الخاسرة، والتى كان زيادة العمالة فيها زيادة كبيرة على احتياجاتها الفعلية من أهم أسباب الخسائر وارتفاع تكلفة المنتجات، وعدم القدرة على المنافسة فى السوق المحلى أو الخارجى.

وبمناسبة صدور الترجمة الصينية لكتاب الدكتور حسين كامل بهاء الدين «الوطنية في عالم بلا هوية» قال البروفيسور عبد الجبار: إن هذا الكتاب من أعمق الكتب التي صدرت في العالم عن العولمة، وأصدقها في التعبير عن التغيرات الكبرى في المفاهيم السياسية والاستراتيجية، وآثار التقدم التكنولوجي واحتكار الدول الكبرى لأسرار التقدم العلمي، والقيم والمبادئ الجديدة التي تفرضها العولمة من حق التدخل في الشئون الداخلية للدول الصغرى، واختراق مبادئ سيادة الدولة على إقليمها وشعبها، أو التمسك بخصائصها الحضارية والثقافية، وبالقيم التي توارثتها عبر الأجيال.. وقد وجد في هذا الكتاب أصداء لما يتردد في الصين والدول النامية من الإحساس بمخاطر العولمة والدعوة إلى التمسك بالهوية الوطنية كطوق النجاة من الغرق في بحار العولمة.. وطغيان الكبار على الصغار في عالم القرن الحادي والعشرين..

وقال البروفيسور عبد الجبار: عندما بدأت الصين في فتح الأبواب على العالم الخارجي وخصوصا على الغرب، كان الناس متحمسين لأن يخلعوا هويتهم ويصبحوا غربيين، وكان عام ١٩٨٩ هو الذروة لهذه الموجة من الإعجاب، والافتتان بكل ما هو غربي، والرغبة في خلع الجلد الصيني والدخول في جلد غربي، ولكن بعد فترة حدث رد فعل عكسي.. عاد كثير جدا من الصينيين المغتربين الذين كانوا يعيشون أو يتعلمون في الغرب.. وعادت الروح الصينية، والاعتزاز بالقيم والروح الصينية.. وبعد أن كان الصينيون قد بدءوا يخلعون الملابس الصينية التقليدية ويلبسون الجينز والملابس الغربية، عادت الملابس الصينية هي الموضة للشباب من الذكور والإناث.. وبعد أن كان الصينيون يتباهون بأنهم يدخنون السجائر الغربية، عادوا إلى تفضيل السجائر الصينية، وبعد أن كان الشباب يفاخر بإتقانه للغة الإنجليزية ويتحدث بها في كل مناسبة أمام الأجانب، أصبح

يفضل التحدث باللغة الصينية كجزء من الاعتزاز بالشخصية الوطنية، رغم أنه يتقن لغات أخرى..

وقال البروفيسور عبد الجبار: إن ما تواجهه الدول النامية اليوم ليس جديدا، فهو تكرار لما حدث على مدى التاريخ، وخذ الصين كمثال: لقد كانت فى القرن الخامس عشر صاحبة أول وأكبر أسطول بحرى فى العالم، ولكن بعد ذلك توقفت وتجمد نموها بضغوط الاستعمار الذى توالى عليها، حتى فاتتها الفرص، وتقدم الآخرون.. وحين استيقظت كان الآخرون قد سبقوها، وكان عليها أن تعمل بقوة.. وبدون راحة.. وبسرعة.. لكى تحاول اللحاق بالمتقدمين.. ولكن تكتلت القوى الاستعمارية على الصين.. وأضاعت الفرص من أمامها.. وهذا ما حدث لكل الدول النامية، وليس للصين وحدها، وهذا هو التحدى الأكبر أمام الدول النامية، إما أن تعمل بقوة خارقة، وإما أن تهمش، وتعيش خارج العالم وخارج التاريخ..

وقال أيضا: إن الصين استعادت الروح بعد حركة إحياء التراث والتاريخ الصينى بدلا من الخجل من ماضيها، وكانت هذه هى دعوة الزعيم الراحل دينج شياو بنج.. وقد حرص على بعث الأصالة والشعور بالثقة بالنفس فى الصينيين، والاعتزاز بكل ما هو صينى.. فنحن لا نخجل من أن جزءا من شعبنا يعانى الفقر والتخلف، لأننا لا نستسلم لهذا الحال ونعمل على تنمية هذه المناطق ورفع مستوى الناس فيها.. ولا نخجل من أننا متخلفون عن الغرب.. نحن نأكل بعصى من الخشب، وهم يأكلون بملاعق من المعدن، لماذا تكون الملاعق أفضل من العصى الخشبية ما دامت تشعرنى بالراحة وما دمت أحبها وأفضلها وهى جزء من تراثى..؟ وفى إطار سياسة إحياء التراث والاعتزاز بكل مراحل تاريخنا فإننا نعمل على إنشاء متحف لمراحل تاريخ وآثار كل مدينة، بما فى ذلك المراحل التى خضعنا فيها للاحتلال، لأننا لم نستسلم، وقاومنا الاحتلال، وانتصرنا عليه، ونحب أن نستعيد هذه المراحل

لكى تظل حية فى الذاكرة القومية، فلا نسمح بتكرارها مهما تعددت الصور واتخذت أشكالا جديدة..

وقال: نحن لا نخجل من أن نقول نحن دولة نامية، لأن هذه هى الحقيقة، ولكننا لا نستسلم لهذا الواقع، ونعمل على تجاوزه والانتقال إلى درجة أعلى.. حتى إن الصين انضمت أخيرا إلى منظمة التجارة العالمية بعد مفاوضات استمرت ١٥ عاما.. كانوا مصممين على اعتبارها دولة متقدمة اقتصاديا وصناعيا، وكانت الصين مصممة على أن تدخل كدولة نامية لها الحق فى الحصول على الامتيازات التى تقررها المنظمة للدول النامية، وحصلت على ما تريد، ودخلت فى عضوية منظمة التجارة العالمية بشروطها، وليس بشروط الدول الكبرى..

وقال أيضا أنه معجب بنجيب محفوظ لأنه يجد فى رواياته الشخصيات المصرية، وتعتبر ثلاثية بين القصرين تسجيلا أمينا وجميلا لتطور الحياة الاجتماعية والتقاليد والعادات وتطور الأفكار والنضال ضد الاستعمار، ومن يقرأ نجيب محفوظ يعرف مصر والمصريين أفضل مما يعرف ذلك من الكتب الأخرى.. فضلا عن أن نجيب محفوظ وهو مغرق فى المحلية وصل إلى قمة العالمية، وهذا ما نسعى إلى الاستفادة منه فى الأدب الصينى الحديث .

واتفق البروفيسور عبد الجبار معى على أن حركة الترجمة للكتب والأدب من اللغتين العربية والصينية أقل مما يجب، وليس هناك جسور تربط بين الشعوب أفضل وأقوى من الثقافة بمجالاتها المختلفة.. ولذلك لابد من حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية والثقافية والأدبية والتاريخية لكى يعرف كل شعب فى البلدين كل شىء عن الشعب الآخر، وبذلك تكون الصداقة قد تعمقت وأصبحت لها جذور راسخة وضاربة فى عمق كل المجتمع الصينى والمصرى معا.